

(٩) (ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق)

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

(ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداث البرية استفاد اسم البارئ) وذلك يدل على أن

الله سبحانه وتعالى أسماءه قديمة وصفاته كذلك، وأقصد بالقدم هنا القدم المتناهي وباب الأخبار أوسع من باب الأسماء والصفات، فالله سبحانه وتعالى لم يصطنع له الناس أسماءً ولم يفرضوا له صفات، بل هو سبحانه وتعالى قد تسمى بالأسماء الحسنى واتصف بالصفات العلى لا أن الخلق أحدثوا له ذلك.

ثم قال -رحمه الله- (له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق) هاتان الجملتان أيضاً تصبان في المعنى السابق "أي أن الله سبحانه وتعالى له وصف الربوبية ومعناه قبل أن يكون مربوباً، ومعنى الخالق والخالقية قبل أن يكون مخلوق" بمعنى أن هذه أسماء وصفات قائمة في ذاته سبحانه ملازمة لأفعاله. والرب كما قد تقدم معنا هو الخالق المالك المدبر هذا الرب هو الذي يربي خلقه بنعمه فالرب هو الخالق المالك المدبر بل له الخلق وهو الإنشاء من العدم والملك والتدبير، فمدار الربوبية على هذه المعاني الثلاث ويندرج تحتها كل ما يخطر ببالك من أفعال الرب عز وجل من الإحياء والإماتة والصحة والمرض و إنزال المطر وإنبات الأرض وإضرار الضرع وغير ذلك من الأمور الكونية، فهو الرب سبحانه رب العالمين الذي ربي جميع خلقه بنعمه فلا قيام لأحدٍ إلا به سبحانه.

واعلموا أن ربوبيته سبحانه تنقسم إلى قسمين:

● **ربوبية عامة** تشمل جميع الخلائق من إنسٍ وجنٍ مؤمنٍ وكافرٍ برٍ وفاجرٍ آدميين وبهائمٍ فهذه الربوبية لا يخرج عنها أحدٌ فما في الكون إلا ربٌّ أو مربوبٌ فالله الرب وما سواه مربوبٌ هو رب العالمين فالعالمون كل من سوى الله، هذه الربوبية العامة تقتضي الإيجاد والإعداد والإمداد فالله سبحانه وتعالى أوجد من العدم والإعداد ركب في مخلوقاته ما به قوامهم كما قال سبحانه وتعالى: { أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } [طه/٥٠]. فقد ركب الله تعالى في مخلوقاته الأسباب التي تمكنها من البقاء والعيش وهذا لمن تأمله وتدبره في الكائنات بحرٌ لا ساحل له وأفقٌ واسع لا نهاية له، ثم الإمداد أنه امددها بأسباب البقاء فيألى جانب أنه أعدها في ذاتها بأسباب بقائها فقد امددها بما يقيمها من مطعمٍ ومشربٍ ونحو ذلك.

● **أما الربوبية الخاصة** فهي التي تكون للمؤمنين وأخص هذه الربوبية ما تكون للأنبياء والمرسلين، فالربوبية الخاصة منها خاصة ومنها خاصة الخاصة، فالربوبية الخاصة لعموم المؤمنين فالله سبحانه وتعالى ربه

برعايته وكلاءته وحفظه ودفعه.

ولا شك أن هذا حاصل للمؤمنين ولأوليائه من أنبيائه ورسله من ذلك القدر المعلى والسهم الأوفر لأنهم أعظموا طواعيةً لله وتعبدوا له فبمقدار حسن العبادة يقابلها ربوبية خاصة وكذلك الخلق فالله تعالى خالق كل شيء ولا يشك على هذا قول الله عز وجل: { فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } [المؤمنون/ ١٤] فإن ليس في هذا إثبات خالق مع الله عز وجل بمعنى الإيجاد من العدم وإنما الآية { فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } [المؤمنون/ ١٤] المراد بالخالقين هنا المصوريين المشكلين، فإنه قد يتدر بعض الناس تشكيل صورة وتخطيطها ونحتها ويتفنن في ذلك لكن الله تعالى أحسن الخالقين فليس الخلق المذكور في الآية هو الإيجاد من العدم فإنه لا يقول للشيء كن فيكون إلا الله سبحانه وتعالى.

قال: (وكما أنه محي الموتى بعدما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم).

هذا أيضاً مزيد تأكيد لاتصاف الله تعالى بالصفات والأسماء قبل وجود آثارها كما انه محي الموتى بعدما أحيا وهذا أمر يتفق عليه جميع العقلاء أنه محي الموتى بعد ما أحيا فلما أحياهم بدا لكل أحد أنه محي الموتى استحق هذا الاسم قبل إحيائهم هو سبحانه مستحق لاسم المحي قبل الإحياء كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم أي قبل وجود هؤلاء الخلق هو سبحانه خالق.

وهذه الجمل كلها تدل على ما تقدم من ثبوت الأسماء الحسنى والصفات العلى له سبحانه وتعالى منذ الأزل وبقاؤها إلى الأبد.

ثم قال (ذلك بأنه على كل شيء قدير). هذه من أخص خصائص الإلهية والربوبية أنه على كل شيء قدير بخلاف المخلوقين فإنهم لا ينالون أو لا يقدرون إلا ما أقدرهم الله عليه، أما الرب سبحانه فهو على كل شيء قدير، (وكل شيء إليه فقير) قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [فاطر/ ١٥]. (وكل أمر عليه يسير) قال تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ } [فاطر/ ٤٤].

قال (لا يحتاج إلى شيء) وذلك لكمال غناه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }

[الشورى/ ١١].

نحن نقول وكل مؤمن على الفطرة السوية يقول أن الله على كل شيء قدير، أما المعتزلة فإنهم يقولون غير ذلك يقولون إنه قادر على كل ما هو مقدور له، ينصرفون عن الجملة القرآنية الثابتة التي جاءت في الكتاب والسنة وأقرها العقل والفطرة إلى هذا الانحراف فيقولون إنه قادر على كل ما هو مقدور له أتدرون لماذا؟

لأنهم يزعمون أن أفعال العباد ليست من مقدرات الله ينكرون القدر فيقولون إن طاعة الطائع ومعصية العاصي ليس الله تعالى قادراً عليها وليس الله تعالى أقدر الطائع على الطاعة ولا العاصي على المعصية. فلاجل ذا يقولون هذا يقولون انه قادر على كل ما هو مقدور له وأما ما ليس مقدوراً له فليس قادراً عليه والعياذ بالله.

وربما قالوا على ما يشاء قدير وهذا خروج عن لفظ القرآن بل يقال {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران/ ١٨٩] و(كل) من ألفاظ العموم و(شيء) نكرة إفادة العموم فالله تعالى قطعاً على كل شيء قدير. فلذلك نرد على هؤلاء ونقول إن قولكم أو تفسيركم لقول الله تعالى {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران/ ١٦٥] يعني على كل ما هو مقدور له هذا كلام لا طائل من وراءه ولا ثمرة له ولا محصل له هو من جنس أن تقولوا عالمٌ بكل ما يعلمه خالقٌ لكل ما يخلقه، هذا ليس فيه مزيد علم.

لو قال قائل الله تعالى عالمٌ بكل ما يعلمه ما فاد كل شيئاً إضافياً أو معنئاً جديداً، لو قال خالقٌ لكل ما يخلقه ما فاد شيءٌ فهم يقولون كذلك قادرٌ على ما هو مقدورٌ له هذا بخلاف ما يقوله أهل السنة موافقةً للقرآن {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران/ ١٦٥] فيتناول كل ممكن كما قال الله عز وجل: {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران/ ١٨٩].

أما المحال لذاته فليس بشيء أصلاً لأن هذا من إرادات المعتزلة على أهل السنة قالوا إذا كنتم تقولون أنه على كل شيء قدير فهل يقدر أن يجعل الشيء متحركاً ساكناً في آنٍ واحد؟ هل يقدر أن يجعل الشيء حياً ميتاً في آنٍ واحد؟

بل يقولون ما هو أشنع من ذلك يقولون "ونقول هذا لأنهم قالوه" هل يقدر أن يخلق مثله؟ هل يقدر أن يعدم نفسه؟ هذه من مقالاتهم التي يريدون بها نقض هذا العموم أن الله تعالى على كل شيء قدير. فيقال لهم إن هذا الذي مثلتم به محال لا حقيقة له، اجتماع النقيضين هذا محال لذاته أن يكون الشيء حياً ميتاً أن يكون الشيء ساكناً متحركاً هذا محال لذاته، ولهذا يقال النقيض والنقيضان هما مالا يجتمعان ولا يرتفعان لا يمكن اجتماعهما في عينٍ واحدة ولا ارتفاعهما عن عينٍ واحدة فإذا ثبت أحدهما ارتفع الآخر وإذا ارتفع أحدهما ثبت الآخر فيما حركة وإما سكون وإما حياة وإما موت فهذا يعتبر ممتنع.

وكذلك ما فاهوا به هل يقدر أن يخلق مثله هذا سؤالٌ فاسد لأن هذا منافٍ للحقيقة ولا وجود له أو غيرها مما قالوه، فنقول هذا الذي مثلتم به ليس بشيء لأنه لا وجود له والله تعالى قد قال: {إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فصلت/ ٣٩] وما تزعمونه وتفرضونه في أذهانكم فهو محالٌ لذاته لا يعد شيئاً أصلاً.

أما الشيء المعلوم لكنه ممكن، معدوم بمعنى أنه لم يخلق فهذا هل يقال عنه شيء أم لا يقال عنه شيء؟
 يقال أما في خارج الذهن فليس بشيء وأما من حيث العلم والذكر هو شيء ألم تر أن الله سبحانه وتعالى
 قد قال: { وَقَدْ خَلَقْتِكُمْ مِنْ قَبْلُ وَمِمَّا تَكْتُمُونَ } [مریم/٩] .

إذاً: سماه شيئاً مع أنه لم يكن فهذا من حيث العلم فيفرق بين المحال لذاته فالمحال لذاته ليس بشيء ولا
 حقيقة له، أما المعدوم الممكن فإنه يقال عنه شيء لكن يقال عنه شيء في العقل والعلم وليس بشيء في خارج
 العقل والعلم وقد أورد الشيخ في هذه الجملة آية هي دستور لأهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات وهي
 قوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى/١١] بل إنها بعض آية ختم الله تعالى بها آية في سورة
 الشورى هذه الآية جملتان تقضيان على ضلالتين فقوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى/١١] رد على أهل
 التمثيل وقوله { وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى/١١] رد على أهل التعطيل فكأن ربنا سبحانه وتعالى يريد منا من
 اجتماع هذين المعنيين أن نثبت له أسماء وصفاته على وجه لا يماثل خلقه لم يرد منا سبحانه تمثيله بخلق ولم يرد منا
 سبحانه تعطيله عن وصفه وإنما أراد منا إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل أراد منا إثباتاً بلا تمثيل بدليل قوله { وَهُوَ
 السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى/١١] مع أن السميع والبصير من أسماء وصفات المخلوقين لكنه قرنها { لَيْسَ كَمِثْلِهِ
 شَيْءٌ } [الشورى/١١] .

وقوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى/١١] رداً على أهل التمثيل فاجتمع معنى إثبات وإقرار وإمرار بكل
 ما أخبر الله به تعالى عن نفسه أو أخبر عنه نبيه صلى الله عليه وسلم لكن مع الاحتراز من التمثيل فهذه الآية
 المحكمة كافية للعبد في باب الأسماء والصفات وذلك أن الممثل يعبد صنماً والمعطل يعبدُ عدماً والمثبت يعبد الله
 الحي الذي لا يموت بأسمائه وصفاته وللعلماء أو النحاة في قوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى/١١] مذاهب في
 إعرابها فمنهم من قال إن الكاف في قوله { كَمِثْلِهِ } إنها زائدة وصلة فيكون اسم ليس (شيء) وخبرها (مثله) لأن
 ليس تحتاج إلى اسمٍ وخبر فعند الكاف صلة وزائدة وأن اسم ليس (شيء) قد تأخر وأن خبرها (مثله) وهذا هو
 أقوى الأقوال في إعراب هذه الجملة.

والقول الثاني إن الزائد ليس في الكاف وإنما (مثل) وتقدير الكلام ليس كهو شيء.

وتم توجيه ثالث أو إعراب ثالث أنه ليس في الكلام زيادة بل هذا التعبير مثل قولك لصاحبك مثلك لا
 يفعل كذا وكذا وأنت تريد ماذا؟ أنت لا تفعل كذا وكذا لكن يكون هذا من باب المبالغة أن تقول مثلك لا يفعل
 كذا وكذا ومرادك ماذا؟ أنت لا تفعل كذا وكذا فتكون للمبالغة ولكن الآية مفهومة المعنى من أن الله سبحانه وتعالى
 نزه نفسه عن المثل وأثبت لنفسه صفات الكمال.

ثم قال (ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر فمن أبصر هذا إعتبر وعن مثل قول الكفار انزجر وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر)

قال نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري - رحمه الله - قال: من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه تشبيهاً، هكذا قال الأئمة نعيم بن حماد وشيوخ البخاري يقول من شبه الله بخلقه فقد كفر تنقص الرب ومن جحد ما وصف الرب به نفسه فقد كفر؛ لأنه عطل الرب وليس فيما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيهاً إذاً هو إثبات بلا تمثيل.

إذاً يقول الطحاوي: (ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر) المراد بهذا من أثبت لله عز وجل معنى يختص به الآدمي فقد شبه الله تعالى وهذا لا يمنع من الاشتراك في أصل المعنى أرجوا أن تتبها هنا اشتراك في أصل المعنى وهناك اختصاص عند الإضافة كيف؟

ومن لم يدرك ذلك الواقع وقع في شبهات المتكلمين ومن أدركه زالت عنه شبهات المتكلمين، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية التدمرية .

العقل والذهن مستقرٌ ومستودعٌ للمعاني وهذه المعاني التي تكون في الذهن والعقل معانٍ مجردة مطلقه فإذا أضيفت تخصصت والتخصص يقطع التشبيه كيف ذلك؟

السمع في الذهن والعقل هو إدراك الأصوات، البصر في العقل والذهن وهو إدراك المرئيات، القدرة التمكن من الفعل من غير عجز، القوة التمكن من الفعل من غير ضعف.

هذه وعليها قصة كل لفظٍ عربي له معنى في الذهن لأن العرب وضعت الألفاظ قوالب للتعبير عن المعاني فالذي في الذهن معاني هذه المعاني في الذهن مشتركة عامة مطلقه كلية إذا أضيفت تخصصت فحينما أقول مثلاً: سمع الآدمي فإنه يعني سمعاً محدوداً بين ذبذباتٍ معينة يعرفها أهل الفيزياء.

حينما أقول بصر الآدمي فإنه يعني موجات ضوئية معينة يعرفها أهل الاختصاص، حينما أقول سمع الحيوان أو مثلاً بصر الطير كالصقر يختلف المعنى أنني أضفته إلى شيء، فالإضافة تعطي معنى التخصص وترفع معنى الاشتراك بل حتى في الجنس الواحد يختلف مدلول السمع من فلان إلى فلان، فلان مرهف السمع يسمع الأشياء الدقيقة، وآخر ثقيل السمع لا يكاد يسمع، وثالث يحتاج إلى وضع آلة في أذنه ليتمكن من تضخيم الأصوات مع أن السمع موجود في هذا وهذا وهذا ليس كذلك؟

البصر نفس الشيء من الناس من يكون حاد البصر مثل زرقاء اليمامة كما قال ترى على مسافة ثلاثة أيام، ومن الناس من بصره معتدل يبصر الأشياء دون الحاجة إلى آلة وأداة، ومن الناس مثلي ومثل بعضكم يحتاج إلى

نظارة كي يتمكن من الرؤية ومن الناس من يكون ضئيل البصر لا يكاد يبصر شيئاً، ومنهم من يكون اعمى فيه إمكانية البصر لكن لم يبصر، إذاً هناك تفاوت عند الإضافة لكن أصل البشر فهو إدراك المبصرات. بناءً على هذا فيمكن أن يكون هناك اشتراك في الاسم وأصل المعنى لا يلزم منه اشتراك في الحقيقة فإذا قلت سمع المخلوق وسمع الخالق قد ميزت مع وجود اشتراك في السمع وهو إدراك الأصوات، بصر المخلوق وبصر الخالق ميزت بسبب الإضافة مع وجود اشتراك في معنى البصر أين يقع هذا الاشتراك؟ في الأذهان. أين يفترق؟ في الخارج، إذا قيل الخارج المقصود خارج الذهن، ولا يمكن لنا أن نعرف ربنا سبحانه وتعالى إلا عن طريق المعاني ولهذا خاطبنا الله تعالى بلسانٍ عربيٍّ مبين وتعرف إلى خلقه بهذه الألفاظ التي يعرفون أصلها في أذهانهم لكنه سبحانه أعلم خلقه بأن له المثل الأعلى.

لم ينفي سبحانه وتعالى أصل المعنى، أصل المعنى موجود ولولاه ما فقهننا عن الله شيئاً فإنه لا بد من وجود أصل للمعنى في الذهن فأنا مثلاً لو وعدتكم بشيء نحت لكم كلمة وقلت من يتقن منكم شرح هذه العقيدة فسوف أعطيه كذا وكذا ونحت لكم جملة مثلاً لو قلت لكم سوف أعطيه سكن جميل هذه الكلمة قد لا تكون معروفة عند الكثير، هل يمثل هذا لكم حافظاً، ما يمثل حافظاً لأن الكلمة غير معروفة، بل يمكن لو عبرت بلغةٍ أخرى غير العربية وقلت سوف أعطيه كذا وكذا لما نشأ عندكم أي حافظ أو دافع للسعي لهذا الأمر لأنه لا معنى له ماذا تستفيد لو قرأت القرآن ما بين دفتيه على أعجمي ما تأثر به؛ لأنه ليس ثم معنى فلأجل ذا الله تعالى خاطبنا بلسانٍ عربيٍّ مبين وأعلمنا أن هذه المعاني التي في أذهاننا لله منها المثل الأعلى فقال في موضعين في كتابه: فقال في موضع: { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } [النحل/٦٠] وقال في موضع: { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } [الروم/٢٧].

فما هو المثل الأعلى؟

المثل الأعلى له توجيهان أحدهما أن الله سبحانه وتعالى من كل وصفٍ أعلاه وأتمه وأكمله فله من العلم أعلاه وله من السمع أعلاه وله من البصر أعلاه وله من القدرة والقوة وسائر ما أضافه إلى نفسه أعلى ما يكون لا يشاركه فيه غيره وبهذا يكون التوحيد.

كيف حصل التوحيد؟

حصل التوحيد بعدم الاشتراك فهو وإن كان للمخلوقين شيء من هذا الاسم لكنهم لا يشاركون الله سبحانه وتعالى في الكمال المطلق فثبت التوحيد.

والمعنى الآخر للمثل الأعلى { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } [الروم/٢٧] ما يكون من جانب العبد وليس من

جانب الرب كيف؟

ما يكون من جانب العبد بمعنى ما يصدر من العبد من تأله استعانة استغاثة دعاء لا يكون إلا لله لا يشركه معه غيره فالعبد قد يستغيث { فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ } [القصص/١٥] لكن الاستغاثة التي تبذلها المخلوق تليق به والاستغاثة التي لله تليق به { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ } [الأنفال/٩] ، ففرق بين استغاثة واستغاثة استغاثتك للمخلوق مثل أدنى واستغاثتك بالخالق مثل أعلى دعاء قد تدعوا مثلاً صاحبك بدعاء كأن تقول مثلاً أقرضني امنحني أعطني أعني إلى آخره.

لكن حينما تقول { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [الفاتحة/٥] هذه استعانة لا تبدل ولا تستحق إلا لله عز وجل فما طلبته من المخلوق مثل أدنى وما طلبته من الخالق مثل أعلى رأيتم إذاً المثل الأعلى له محملان لا تعارض بينهما أحدهما من جانب الرب والثاني من جانب العبد فالذي من جانب الرب أن الله تعالى له الصفات العلى فله من كل وصف أكمله وأعلاه وأتمه فله كمال العلم وكمال القدرة وكمال الإحاطة وكمال الربوبية إلى غير ذلك. وشيء من جانب العبد الذي يقتضي إفراده بالعبادة فمن الأعمال ما لا يجوز صرفه لغير الله فهذا هو المثل الأعلى من جانب العبد فلا يشرك مع الله فيه غيره، فصار تعلق المثل الأعلى من جانب توحيد الأسماء والصفات ومن جانب توحيد العبادة فالمثل الأعلى له تعلق بتوحيد المعرفة والإثبات وله تعلق بتوحيد القصد والطلب وهذا معنى ينبغي التنبه له لأنه من أحسن المطالب .

وصلى الله على سيدنا محمد